زينب الكبرى

العروس الهاشمية ـ ابن الخالة ـ
سعادة لم تطل ـ ليل لايبدو له
آخر ـ الأسير والقلادة ـ مسلمة
ومشرك ـ طارق بليل ـ الفراق
الأخير ـ ذكرى !

لم تكن قد جاوزت العاشرة من عمرها حين رنت اليها عيون الهاشميين ، وتنافست بيوتات مكة على الظفر بها عروسا لمن يختاره لها أبواها من كرام الفتية القرشيين

ولكن واحدا منهم ، لم يكن له من الامل فى الزواج من « زينب » مثل ما لابن خالتها « أبى العاص بن الربيع »أحد رجال مكة المعدودين شرفا ومالا ، فلقد أتيحت له فرصة لم تتح لسواه ، اذكانتخالته « السيدة خديجة » تنزله منزلة الابن ، فتهيأ له بذلك أن يغشى بيت محمد كلما أراد ، فيجد من الترحاب البالغ والود الصادق ، مايطمعه فى أن يكون الزوج المختار لزينب ، تلك التى خفق لها قلبه منذ حداثتها الباكرة ، فراح يرمقها وهى ترقى سراعا فى مدارج النمو ، وتتفتح للصبا ملء البهاء والاشراق

وكان مكانها فى بيت أبيها ، ككبرى بنات أربع ، قد أسرع بها الى النضوج قبل الاوان ، بما ألقى عليها من عبء المشاركة فى حضانة أخواتها ، مع الام الكريمة التى كانت حينذاك قد جاوزت عامها الخمسين ، وأجهـــدتها بلا ريب مشاق الحمل والوضع المتتابع دراكا فى العقد الخامس من عمرها ، فاضفت هذه المشاركة على « زينب » طابع الانوثة الناضجة ، ولما تزل ندية الصبا غضة الاهاب

وكان « أبو العاص » يراها كلما ألمببيت خالته ، فيؤخذ بجلال مرآها وعذوبة حنانها وذكاء ملامحها ولطف طباعها وتفتح أنوثتها

وكانت مشاغله الجسام تمسكه أحيانا عن الالمام ببيت خالته ، وبخاصة فى المواسم الكبرى حين تزدحم مكة بأفواج الساعين اليها من الحجيج والتجار، كما كانت رحلاته التجارية المتصلة ، الى الشمال والى الجنوب ، فى الشتاء والصيف ، تحبسه عن البلد الحبيب فترات قد تمتد وتطول حتى تبلغ احداها أشهرا ذوات عدد ، وربما لقيته فى بعض هاتيك الرحلات ، نساء وفتيات ، من ساحرات البادية ، وفاتنات اليمن ، وجميلات الشام ، لكنه كان أبدا يرنو الى مكة على البعد ، خافق القلب مستثار الحنين، ويستصحب معه أنى سرى وحيثما سار ، طيفا من تلك الصبية الرقيقة الوديعة، التى يتألق وجهها بابتسامة حلوة ، وتفيض ملامحها بعذوبة آسرة ساحرة

ولم يغب عن باله قط أن الفتية الامجاد من آل هاشم يرنون الى خطبتها ، لكنه كذلك كان يعرف فرصته ويطمئن الى مواتاة حظه ، فليس بين منافسيه جميعا من تتاح له مثل مكانته فى بيت محمد ، أو تتهيأ له فرصة التلطف فى كسب ود « زينب » والوسيلة الى الظفر باعجابها وتقديرها

وأبت عليه ثقته فى نفسه أن يدخل مع منافسيه فى معركة مكشوفة ، بل اكتفى بأن يودع سره الغالى لدى خالته الرءوم ، وانصرف مطمئنا ، الى تدعيم مركزه وبناء مجده ، ليكون لزينب نعم القرين

وكذلك أبت عليه فطنته أن يحاول كسب عواطف فتاته فى عجلة ، أو أن يطرق باب قلبها البكر فى عنف، فهى على نضجها واتزانها ماتزال الصبية الغريرة الخجول ، وأى تسرع فى الكشف لها عن حبه قد يخدش حياءها العذرى ويجرح

براءة صباها ، وهو ما كان ابن الخالة يخشاه ويتقيه

وقد كلفه هذا الموقف جهدا غيرقليل ، وفرض عليه قيودا ثقالا من الكبت والحرص والحذر والتأنى ، ولكنه فى الوقت نفسه ، جعل « زينب » تطمئن اليه وتأنس له فى غير حذر ولا تحرج ، وقد بان لها من مخايل رجولته التى أنضجتها التجربة والرحلة ، ماجعلها تعتز به أخا ، ولا ترى فى فتيان قريش من يوزن به قوة شخصية وسعة خبرة ، وان وزنوا به أصالة ونسبا ، وربما مالا كذلك

وقد اعتاد « أبو العاص » أن يجعل بيت محمد قبلته بعد الكعبة كلما آب من سفر ، فكانت « زينب» ترتاح الى محضره، ويطيب لها أن تصغى الى مافى جعبته من طرائف وغرائب التقطها من مدرسة الأسفار ، وكأنما كانت ترى فى وعيها لحديث رحلاته ، وفهمها لكلامه عن الدنيا والناس ، آية رشدها الذى تميزت به عن لداتها وأترابها

وربما جاءها فى بعض أوباته من الرحلة بحلية جميلة أو هدية مناسبة ، فتتلقاها فى بشر حلو ،وترى فيها تحية جميلة لما يربطهما من أواصر المودة والقربى

وهكذا تفتح له قلبها البكر على مهل، فأحست تلك اللمسة الرقيقة الساحرة تحرك وجدانها فى رفق ولطف ، وكانت أمها الى جانبها ترقب هذا التفتح بعين ساهرة لاتنام ، وقد أرضاها بلا ريب أن يظفر « أبو العاص » بقلب « زينب » والا فما كانت خديجة بالتى تفرضه على ابنتها لو أن قلبها ظل مغلقا دونه

و«خديجة» قد عرفت الحب الطاهر وتذوقت من رحيقه العذب ، وخرجت من تجربتها العبقرية الفذة ـ التى بدت

فى حينها أشبه بمغامرة أسطورية ـ أشد حماسا للزواج القائم على الحب المتبادل ، وأعمق ايمانا بأنه النعمة الكبرى التى تهبها السماء للموعودين السعداء

وتلطفت السيدة الام ، حتى أنبأت زوجها بهذه العاطفة الحلوة التى لمست قلب فتاته الأولى ، فرق قلب الاب النبيل للحبيبين العزيزين ، وتمثلهما وهما يترشفان فى حياتهما الزوجية ، من ذاك النبع العذب المبارك الذى شاء له حظه أن ينهل منه أعواما دون أن يضجر أو يمل

هنالك أشارت «خديجة» على ابن أختها أن يتقدم الى محمد أبى زينب خاطبا ، وكان بودها لو تمهلت فترة لتستبقى ابنتها الكبرى الى جانبها ، لكنها رأت تهافت الفتية القرشيين على مصاهرة الهاشمى الامين ، وخشيت اذا هى تريثت أمدا ، أن يسبقوا « أبا العاص » الى طلب يد «زينب» فيكون ثمت شىء من الحرج لاترضاه لزوجها العزيز

وقد أحسن «محمد» لقاء «أبى العاص» كما اعتاد دائما أن يفعل ، وأصغى بملء سمعه اليه وهو يعرب له عن رغبته فى الزواج من «زينب» . ثم كان جوابه ، أنه نعم الصهر الكفء ، لكنه مع ذلك يرجو أن يمهله ريثما يعلن هذه الرغبة الى ابنته ، فانها لأهل لان تكون صاحبة الكلمة الاولى فى أمر جليل كهذا : يعنيها أكثر مما يعنى أى فرد سواها

وكان الأب الكريم يعرف شعور ابنته نحو «أبى العاص»

ورأيها فيه ، لكنه ، على مايعرف من هذا كله ، لم يشأ أن يقطع فى الامر دونها ، وأراد بعدكل هذا أن يعفيها من حرج المواجهة ، فعهد الى أمها أن تسبقه اليها بالنبأ السعيد ، ثم قام يسعى حتى دنا من غرفتها فوقف قريبا منها بحيث تسمعه ولا تراه ، وقال بصوت ملؤه الحب والحنان :

ـ بنيتى زينب ، ان ابن خالتك أبا العاص بن الربيع ذكر اسمك

ولم ينتظر جوابها جهيرا معلنا ، فقد كان يعرف أن حياءها سوف يمسك لسانها عن الرد ، اللهم الا اذا كانت تابى الزواج بالرجل فتتغلب على حيائها كيلا يتم الامر على ماتكره

وتلبث الاب برهة يصغى ، فلم يسمع سوى خفقات القلب الطاهر ، ودعوات الام الحنون ، واذ ذاك عاد الى حيث ترك أبا العاص ينتظر ؛ فصافحه مهنئا داعيا مباركا

▭

وذاع النبأ السعيد فى مكة ، فوجمت له قلوب شبانها الذين طمعوا فى الظفر بالعروس الهاشمية ، لكن أحدا منهم لم يجرؤ أن يذم الصهر المختار . أقصى ما قالوه يومئذ أن بنى العم كانوا أولى بزينب من ابن الخالة ، ثم أمسكوا فلم يقولوا عن أبى العاص الا خيرا ، وهل كانوا يستطيعون أن يقولوا الا خيرا ؟

قرشى صميم ، يلتقى نسبه من جهة الاب مع محمد بن عبد الله ، عند عبد مناف بن قصى ، فهو « أبو العاص بن الربيع ابن عبدالعزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى »

ويلتقى نسبه من جهة الام مع زينب بنت محمد ، عند جدهما الادنى خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى ، فأمه « هالة بنت خويلد » أخت خديجة الطاهرة ، زوج محمد وأم زينب

وكان الى جانب ذلك الاصل العريق والعرق الطيب ، كريم الخصال نبيل الشخصية ، حتى لقد لقبه قومه بالامين، كما لقبوا محمد بن عبد الله

وأتاحت له أمانته من ثقة الناس به واطمئنانهم اليه ما جعله يثب الى الصف الاول من صفوف التجار،وهم يومئذ سراة مكة وأثرياؤها

ولقائل أن يقول ان السيدة خديجة ساعدت أبا العاص على تحقيق رغبته ، وأعانت على اختياره زوجا لزينب،ولآخر أن يقول ان محمدا كان بحيث يؤثر الهاشميين ، لو لم يكن أبو العاص ابن أخت خديجة ، وهى من هى فى حياة محمد وفى قلبه وفى دنياه

ولكن اذا كانت السيدة خديجة قد مهدت السبيل أمام ابن الربيع ، فقد كان له وراء هذا من مجده المكتسب والموروث ، مايزكيه ويغنيه ، ويفتح له أى بيت شاء من بيوتات مكة ، ويزف اليه أى عروس يختارها من زهرات المجتمع القرشى العالى

تهيأ البيت المحمدى للعرس ، وامتلأ بذلك الضجيج المحبوب الذى يقترن عادة باعداد بيت جديد . وقد بعث « محمد » فى طلب أزكى العطور والاطياب ، كما أرسلت

خديجة من يجوبون الاسواق القريبة ، ويترصدون من يفد على مكة من التجار ، ليأتوها بخير ما يحملون مما يصلح للعروس . على حين مضى أبو العاص يعد بيته لاستقبال الوافدة الغالية ، ويسخو في هذا السبيل بما يتيحه له ثراؤه من مال

وآن موعد الزفاف ، فبدت « زينب » في جلوة العرس رائعة البهاء ، ورددت أرجاء مكة أصداء الحفل البهيج ، ونحرت الذبائح ودعي اليها كل من أظلته سماء البلد العتيق

وصحبت الاسرة المحمدية عروسها الى بيتها الجديد ، ولبثت هنالك وقتا تبارك الزوجين ، وتهون على الغالية مشقة فراقها لبيتها الاول الذي حلت فيه تمائمها ، ثم تركتها في رعاية زوجها الكريم

وهناك اظلت زينب وزوجها أبا العاص سعادة غامرة ، وأتاح لهما الحب المتبادل أن ينعما بالعيش في ظل الزوجية الموفقة ، وان مرت بهما بين الحين والحين فترات من وحشة الفراق المؤقت . ذلك أن أبا العاص كان مضطرا الى السفر في تجارته ، فيمضي تاركا قلبه في مكة ، وتحاول « زينب » أن تتجلد للفراق ، وتستعين عليها بزيارة بيت أبيها ، فرارا من وحدتها والتماسا لبعض التسلي ، واستراوحا لذكريات طفولتها السعيدة ، وهنالك كانت تشهد مايلوح في أفق الاسرة من طلائع ذلك الغد المغيب ، وقد كثر انقطاع أبيها الى التعبد والتأمل في خلوته بغار حراء ، وبدت أمها ولا شغل لها الا أن ترمقه على البعد ، وتهيىء له مافي طاقتها من أسباب الراحة والهدوء

وتتشاغل «زينب» بالمشاركة فى تدبير شئون الدار لكى تتيح لامها الفراغ للتفكير فى الحبيب واعداد زاده والسهر على سلامته ، حتى يعود «أبوالعاص» من سفره فترجع زينب الى بيتها حيث تفضى الى زوجها بما يساورها من قلق، فيبث فى نفسها الطمأنينة ، ويردها الى مألوف حالتهـا من دعة واشراق

ثم من الله عليهما بوليدة سماها جدها « أمامة » فكانت لهما قرة عين ...

وذات صباح ، سمعت « زينب » مبكرة الى بيت أبيها وأبو العاص على سفر ، فالتقت لدى الباب بأمها عائدة من زيارة عجلى لابن عمها « ورقة بن نوفل »

ولم يسبق لزينب أن رأت أمها على مثل هـذه الحال من الانفعال والاهتمام والاشتغال ، وقد راعها أن مرت بها فلم تكد تراها ، بل اندفعت لاتلوى على شىء نحو مخدع زوجها، حيث تلبثت هناك فترة غير قصيرة ، قبل أن تخرج الى بناتها وقد عاودها هدوؤها وبانت عليها راحة البال

وأصغت « زينب » الى أمها وهى تحدثها حـديثا عجبا عن نزول الوحى على أبيها صـلى الله عليـه وسـلم اذ كان يتعبد فى حراء ، فأخذت بما سمعت حتى لم تحر جوابا ، ذلك أن الامر كان من الخطر والجلال بحيث قصرت عن ادراكه وأعياها أن تبلغ مداه

ولبثت فى مكانها ساكنة لاتريم ، وأفلت منها زمام أفكارها فلم تدر من أين تبدأ ولا أين تنتهى ، بل خيـل اليها أنها تسبح نائمة فى بحر لجى لاتدرك عبره !

حتى ردها الى يقظتها صوت أختها فاطمة تقول :

ـ أو مايسرك يا أختى أنك بنت نبى هذه الامة ؟

اجابت بعد تأمل صامت :

ـ أجل والله يا فاطمة ، وأية فتاة لايزدهيها هذا الشرف الذى مابعده شرف ؟ لكنه الذى سمعت وسمعت من قول خالى «ورقة» : ليكذبن أبى ، وليؤذين ، وليخرجن وليقاتلن!

ففكرت « فاطمة » مليا وقد عز عليها أن يؤذى أبوها ، ثم رفعت وجهها وقالت لأختها :

ـ هو والله ماقالت أمى لأبى :

« الله يرعانا يا أبا القاسم ، أبشر يا ابن عم واثبت، والله لايخزيك الله أبدا .. انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »

وابتسمت زينب ، وكذلك فعلت فاطمة ، وان أحست كلتاهما أن لهذا الامر ما بعده !

عاد « أبو العاص » من رحلته ، وملء سمعه شائعات تناقلها الركبان ، عن ظهور « محمد بن عبد الله » بدين جديد

وأسرت اليه زوجته « زينب » بالنبأ اليقين ووجهها يفيض بشرا وأملا وفخرا ، فماراعها الا أن أمسك صامتا لايعقب وسألته :

ـ مابك يا ابن الخالة ؟

أجاب وهو يضمها الى صدره :

ـ بى يا حبيبة أنى خائف

ثم أرسلها من بين ذراعيه وهو يردد كمن يحدث نفسه:

ـ لو تبعتـــه لقال القـوم : فارق دين آبائه ارضـــاء لزوجه وحميه ، ولوخالفته ...

فلم تدعه زينب يتم كلمته ، بل قاطعته فى لهفة وضراعة:

ـ لكنك لن تدع كلام القوم يثنيك عن الحق .

ورنت اليه طويلا قبل أن تقول :

ـ وأنا بعد قد أسلمت يا ابن الخالة

قال وقد أسقط فى يده :

ـ أو قد فعلتها يازينب ؟

أجابت :

ـ ماكنت لأكذب أبى ، وانه والله لكما عرفت : الصادق الامين

ثم أضافت :

ـ وكذلك أسلمت أمى وأخوتى، وعلى ابن العم أبى طالب، وأبو بكر ، وأسلم من قومك ابن عمك عثمان بن عفان بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس ، وابن خالك الزبير بن العوام بن خويلد

فلم يبد عليه أنه أصغى الى ماتقول ، بل استطرد متسائلا وفى صوته رنة أسى وملام :

ـ فهل فكرت يا زينب حين تبعت دين أبيك ، فيمايحدث لو بقيت أنا على دين آبائى ؟

فهزت رأسها وهى تجيب :

ـ كلا يا ابن الخالة ، بل رجوت أن تسبق الى الاســلام كما سبق اليه من قومك عثمان والزبير

فانثنى موليا . وخرج الى دار الندوة ، وبقيت هى تنتظر على جمر

وآب اليها فى غسق الدجى واجما مطرقا ، فلم تحاول أن تسأله عما به،بل تركته حتىجلس وقال من تلقاء نفسه بصوت حزين :

ـ لقيت أباك اليوم فى الكعبة يازينب ، ودعانى الى الاسلام

ثم لم يزد ..

وكان فى وجوم ملامحه ، وترنح صوته ، مايغنى زينب عن سؤاله : بم أجاب الدعوة

ووقفا فى أعماق الليل يطويهما الحزن والخوف والاسى ، فلما أرهقتهما وطأة الموقف تدانيا حتىهما بعناق،ثمما لبثا أن تراجعا فجأة ، وكأن حاجزا غير مرئى يقفبينهمافيحول دون مايبغيان من شعور بالتدانى ، والتماس كل منهما فى صاحبه ملاذا وسكنا

ولم يناما ليلتهما ، ولا مابعدها من ليال ، اللهم الا أن يغلبهما الكلال فيغفوا مجهدين ، غفوات خاطفة ، حائرة ممزقة

وقال لها ذات ليلة وقد راعه ماتكابد :

ـ والله ما أبوك عندى بمتهم ، وليس أحب الى من أن أسلك معك ياحبيبة فى شعب واحد ، لكنى أكره لك أن يقال ان زوجك خذل قومه وكفر بآبائه ارضاء لامرأته ، فهلا قدرت وعذرت !؟

فتندت عيناها بالدموع ولم تجب ، وانخايلها الامل فى أن تنجلى الغمة عن قريب ، كما منتها أمها خديجة

على أن الغمة لم تنجل سراعا ، بل طال عليها الأمد وجاوزت المدى، وهذه قريش قد لجت فى عداوتها للرسول، وأمعنت فيمن اتبعوه أذى واضطهادا حتى أثخنتهم بالجراح وأخرجتهم من ديارهم وأموالهم . ثم لم يكفها كل ذاك الذى فعلت بالمسلمين ، بل مدت يد الاذى الى بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، لأنهم أبوا أن يسلموا رجلهم الى أعدائه المشركين ، فكانت المقاطعة الرهيبة التى خرجت بالهاشميين الى شعب أبى طالب بظاهر مكة ، حيث أقاموا هنالك سنين ثلاثا فى حصار منهك

ولم تكن « زينب » فيمن خرج الى الشعب ، لكن انباء من فيه كانت تأتيها فى دار أبى العاص ، فتروعها بالذى يكابده أهلها هناك

ولم تنجل محنة الحصار ، الا لتسلم الى ليل طويل ، لا يبدو له آخر !

▭

ماتت « خديجة »

ومات « أبو طالب »

فأحيا فقدهما ما مات من آمال المشركين فى النصر على النبى ، وعادت معركة الاضطهاد التى فترت هونا عقب الحصار ، الى اشد مما كانت عليه تأججا وسعيرا ...

وبدا اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، يهاجرون تباعا فرارا بدينهم من الفتنة والاذى ، حتى لم يبق مع الرسول بمكة الا من حبس أو فتن ، غير على بن أبى طالب ، وأبى بكر الصديق رضى الله عنهما

وبلغت هذه المرحلة من المعركة ذروتها ، وسرى الهمس فى مكة ان المشركين قد ائتمروا بمحمد ليقتلوه ويستريحوا منه

وأصبحت « زينب » ذات يوم ، ومكة من أدناها الى اقصاها ، تتحدث عن مطاردة قريش لمحمد الذى خرج من « مكة » وليس معه سوى صاحبه أبى بكر الصديق

واوجست فى قلبها خيفة « زينب » وهى تصغى الى أنباء المطاردة العنيفة العنيدة ، حتى اذا بلغها وصول أبيهـــا صلى الله عليه وسلم الى مأمنـــه فى دار الهجرة ، اطمأن عليه بالها

وجاء رسول من يثرب فصحب أختيهـــا « فاطمـــة وأم كلثوم » الى يثرب ، وكانت « رقيـــة » قد هاجرت كذلك من قبل ، وبقيت هى دونهن فى دار ابى العاص بمكة، اذ لم يكن النبى قد فرق بينهما بعد

وتلفتت حولها فاذا مكة قد خلت من كل الأهل ، واذا دار أبيها مغلقة خلاء ، اللهم الا من أطياف الاحباب الذين هجروها كارهين

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة ، تسألها : أين من كانوا بالامس يملئونها بهجة وانسا ؟

أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم والطيب ؟

رحلوا جميعا ، فأما خديجة وولداها فالى غير مآب ، واما محمد وبناته فالى هجرة واغتراب

والتمست قبر أمها فأكبت عليه تروى الثرى بدمعها ؛ حتى اذا أراحها البكاء هونا أغرقت فى تأمل صامت حزين :

واعجبا .. الاحياء من أهلها وأحبابها جد نائين ، والموتى منهم هم الجيران القريبون !

وذكرت سعادتها المدبرة ، فشعرت بقلبها يكاد يتمزق : ان زوجها العزيز لا يزال على دين آبائه ، ولو كان قد اسلم لما تمزق الشمل وانفردت هنا بمكة ، بعيدا عن أبيهـــا وأخواتها

▭

وتتابعت النذر معلنة بدنو عاصفة عاتية ، فمحمد صلى الله عليه وسلم قد وجد فى يثرب نصرا ومقاما ، وأصحابه يتربصون بقريش ليقطعوا عليها طريقها الحيوى بين مكة والشام ، وقد نجحت جماعة منهم فى الظفر بعير تحمـــل تجارة لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمى ، فعاد المسلمـون الى يثرب بالعـــير وبعض الاسرى ، وتركوا ابن الحضرمى صريعا بسهم على اديم الصحراء

وظل اهل مكة بين مصدق ومكذب ومرتاب فى امر هذه القلة المغتربة مع « محمد » بغير عدة ولا مال ، حتى روعوا بعودة « ضمضم بن عمرو الغفارى » ـ وكان مسافرا فى تجارة الشام مع أبى سفيان ـ فما بلغ مكة حتى وقف على بعيره وحول رحله وشق قميصه وصاح مستنفرا :

ـ يا معشر قريش .. الطيمة الطيمة ! اموالكم مع ابى سفيان قد عرض لها محمد فى اصحابه لا ارى لكم ان تدركوها .. الغوث الغوث !

فجاءته الاصوات من كل جانب :

ـ ايظن محمد واصحابه ان تكون عير ابى سفيان كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك !

وصك الصوت سمع « زينب » فادركت انها الحرب..

الحرب بين قريش والمسلمين

وفى الاولين زوجها ووالد طفلتها امامة : ابو العاص بن الربيع

وفى الآخرين ابوها : محمد رسول الله !

وباتت ليلتها وليس فيمن تظله سماء مكة اشقى منها وافدح هما وقلقا

فلما اصبحت ، وقفت ترقب قريشا وهى تسير فى الف مقاتل كاملى العدة شاكى السلاح لتمنع عيرها

كم ترى يكون عدد الجيش مع ابيها فى يثرب ؟ مائة ؟ مائتان ؟ ثلاثمائة ؟ يازينب مما تتمخض عنه المعركةالرهيبة غير المتكافئة

وانثنت الى مهد طفلتها « امامة » فرنت اليها بعين دامعة وقلب متصدع ، ثم همست بصوت حزين ابح :

ـ لن تطلع علينا الشمس يا ابنتى فى مثل يومنا هذا ، الا واحدانا يتيمة !

ثم ارخت يديها ، وجمد الدمع فى مقلتيها ، واستسلمت لقضاء الله وقدره

ولم تحاول أن تتتبع أنباء القتال الدائر أو تتلمس ما يصل الى مكة من أخباره ؛ فأيا ما كانت النتيجة ، فليس أمام « زينب بنت محمد » الا اليتم أو الترمل !

واذ هى منطوية على نفسها تجتر مخاوفها ، جاءتها عمة أبيها « عاتكة بنت عبد المطلب » فابتدرتها قائلة :

ـ أو ما بلغك النبأ العجيب ؟

فنظرت اليها زينب بادية اليأس ، ولم تجب

واستطردت العمة :

ـ انتصر محمد فى قلة من صحابته ، على قريش فى كثرتها وعدتها

فانتفضت زينب هاتفة :

ـ انتصر أبى !؟ وافرحتاه !

ثم تذكرت بغتة زوجها أبا العاص ، فضمت طفلتها الى صدرها واستعبرت باكية

لكن العمة عجلت اليها بالبشرى : لم يقتل أبو العاص ، بل وقع فى أسر صهره الكريم

هنالك تعلقت « زينب » بعنق عمتها ، تقبلها بدموع الفرح ، ثم سكنت على صدرها مجهدة تستريح . . .

□

وأتتها بقية الانباء بعد حين . . .

جاءت بها فلول الجيش المهزوم الذى ترك هامات

قريش ورءوسها مجندلة صرعى حول ماء بدر ...

وأذيعت اسماء الأسرى ، فبعث ذووهم فى الفداء

وكان ابو العاص ذا مال ، وقد اراد اهله ان يفلوا فى فدائه ، لكن « زينب » آثرت أن تفتـــديه بما هو أعز من المال !

سيق أسرى بدر الى يثرب فى أعقاب الفئة الظافرة ، فتاملهم الرسول صلى الله عليه وسلم مليا ، ثم نحى عنهم صهره « ابن الربيع » ، وفرق الباقين بين اصحابه وقال :

« استوصوا بالاسارى خيرا »

وبقى ابو العاص عند النبى ، حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها

وغالوا فى الفداء ، حتى ان المرأة لتسأل عن أغلى ما فدى به قرشى ، فيقال لها : أربعة آلاف درهم . فتبعث بمثلها فى فداء ابنها (السيرة ٢/٣١٦)

وتقدم « عمرو بن الربيع » أخو ابى العاص ، فقـــال للنبى :

ـ بعثتنى « زينب بنت محمد » بهذا ، فى فداء زوجها : اخى ، ابىَ العاص بن الربيع

وأخرج من ثيابه صرة قدمها الى الرسول ، فاذا فيها « قلادة » لم يكد « محمـــــد » يراها حتى رق لها رقة شديدة ، وخفق قلبه للذكرى

لقد كانت قلادة « خديجة » اهدتها الى ابنتها زينب يوم عرسها حين زفتها الى ابى العاص ، ابن اختها « هالة »

واطرق أصحاب الرسول خشعا وقد أخذوا بجـــلال الموقف وروعته :

قلادة الحبيبة ، تبعثها ابنة النبى الى أبيها ، فى فــداء زوج حبيب !!

وتكلم الأب النبى بعد فترة صمت ، فقال فى حنان :

ـ ان رأيتم ان تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها ، فافعلوا

فهتفوا جميعا بملء قلوبهم :

ـ نعم يا رسول الله

وأدنى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ اليه صــهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف ، فأسر اليه حديثا لم يعلم ما هو ، فحنى ابن هالة رأسه موافقا ، ثم حيا ومضى ، فلما أبعد ، التفت الرسول الى أصحابه من حوله ، فأثنى على أبى العاص خيرا وقال :

ـ والله ما ذممناه صهرا !

دخل « ابو العاص » بيته فما راته زوجته « زينب » حتى وثب قلبها اليه فرحة بنجاته ، ثم لم تسعفها قواها على النهوض لفرط ما هزها الانفعــال ، فرفعت وجههــا الجميل الى السماء تحمد الله أن رده اليها والى ابنته سالما ، وتضرع اليه تعالى أن يشرح قلبه للاسلام

وشغلتها فرحة اللقاء ، فلم تلمح ما يغشى وجه الحبيب من وجوم واكتئاب ، حتى قال وهو مغمض العينين كأنما يشفق أن يرى وقع كلماته عليها :

ـ جئتك مودعا يا زينب

فصاحت كمن لسعتها نار :

ـ هكذا ولما نكد نلتقى ! ؟

قال وما زال يتحاشى النظر اليها :

ـ لست راحلا يا زينب ، ولكنك الراحلة هذه المرة !

وهالها ما تسمع :

كانت تعرف أن قريشا ارادت أصهار الرسول على أن يردوا بناته اليه ليشغلوه بهن ، وقد استجاب لهم زوجا اختيها «رقية وأم كلثوم» فرداهما الى ابيهما ، اما ابو العاص فتركهم يقولون :

ـ فارق صاحبتك ونحن نزوجك اى امراة من قريش

ثم روعهم بجوابه :

ـ لا والله انى لا افارق صاحبتى ، وما احب ان لى بامراتى امراة من قريش

فهل تراهم عاودوه اليوم فى امر فراقها فاستجاب لهم بعد الذى كان فى « بدر » ؟

وشعرت ببرودة تجمد اطرافها وتسرى الى قلبها ، بحيث لم تستطع ان تخطو الى فراشها ، فاستندت الى جدار مخدعها مرتعدة ، تنتظر فى استسلام يائس ، ماذا بعد

وادرك « ابو العاص » ما خطر ببالها ، فبادرها قائلا فى حنو وكأنما ذاب قلبه فى صوته :

ـ رحماك يا حبيبة ، ان اباك هو الذى طلب ان اردك اليه ، لأن الاسلام فرق بينى وبينك ، وقد وعدت محمدا ان ادعك تسيرين اليه ، وما كنت لانكث عهدى

وحملها صوته الى بعيد

وتمثلت نفسها فى يثرب ، تقبل أباها وتعانق اخواتها ، وتلقى النازحين من الأهل

وانتشت بالحلم الهنىء لحظة ، ثم آبت منه حين وقعت عيناها على «ابن العاص» غارقا فى شجنه ، فسألته مترفقة ،

ـ كم بقى لنا من وقت نقضيه معا ؟

أجاب بصوت واهن :

ـ ليس بالكثير .. ان هى الا أيام تتجهزين فيها للسفر ، ثم يكون الفراق المحتوم

وبقى سؤال لزينب :

ـ وترافقنى الى يثرب ؟

فأمسك دموعا تحيرت فى مقلتيه واجاب :

ـ كلا يا ابنة الخالة ، بل يأتى اخوك زيد بن حارثة ورفيق له من الانصار حتى يبلغا « بطن ياجج » ـ على بعد ثمانية أميال من مكة ـ فينتظرا هناك حتى تمرى بهما فيصحباك الى أبيك بيثرب

وخرجت « زينب » فى الغداة تتجهز للسفر ، فلمحتها « هند بنت عتبة » التى روعها مصابها فى بدر ، واخرجها من بيت زوجها ابى سفيان الى محافل مكة وانديتها تدعو للثأر ممن قتلوا أباها عتبة بن ربيعة ، وعمها شيبة ، واخاها الوليد بن عتبة ، وابن عمها عبيدة بن سعيد بن العاص بن أمية ، وابن زوجها حنظلة بن أبى سفيان بن حرب

ولم يخف على هند ـ فى ذكائها اللماح ـ أن زينب انما تتجهز لتلحق بابيها ، لكنها ارادت أن تستوثق من الامر ، فدنت منها وقالت متلطفة :

ـ يا بنت محمد ، الم يبلغنى انك تريدين اللحوق بأبيك ؟

فتحيرت « زينب » لا تدرى بماذا تجيب . واضافت هند مجاملة :

ـ اى ابنة عمى ، ان كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك فان عندى حاجتك ، فلا تضطنى منى فانه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال

ولمست الكلمات الرقيقة الناعمة قلب زينب الطيبة الطاهرة ، المبرأة من الكيد والخبث ، فهمت بأن تفضى الى هند برحيلها القريب ، لولا ان شعرت بما يشبه الخوف ، فكتمت عن بنت عتبة خبر سفرها

ومضت كلتاهما لشأنها

أما زينب فقالت : « والله ما أراها قالت ذلك الا لتفعل ، ولكنى خفتها فأنكرت ان أكون اريد اللحوق بيثرب »

واما هند ، فراحت تؤجج فى قريش نار الثأر ، وتغذيها بوقود من الحقد والبغضاء

وسرعان ما حل الموعد المضروب

وودعت « زينب » أبا العاص وداع محبة غير قالية ولا هاجرة ، وخرجت وفى أحشائها بضعة منه : جنين لم يستكمل شهره الرابع

وحاول « ابو العاص » ان يتجلد فقال :

ـ مهما يحدث يا زينب ، فسأبقى على حبك ما حييت ، وسيبقى طيفك أبدا ملء هذه الدار التى شهدت أيامنا الحلوة

ثم خانه تجلده ، فأرخى بصره وترك أخاه « كنانة بن الربيع » يمضى بها الى حيث ينتظر زيد وصاحبه

وانطلق « كنانة » يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا ، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا على مرأى منهم ومسمع ، وخرج رجال منهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى ، فكان أسبقهم اليها « هبار بن الأسود الأسدى » الذى روعها بالرمح وقد جن حزنه على اخوة له ثلاثة ، صرعوا جميعا فى بدر بأيدى أصحاب محمد

ونخس البعير ، فألقى براكبته على صخرة هناك ، واذ ذاك برك « كنانة » دونها ونثر كنانته وهو يزأر :

ـ والله لا يدنو منى رجل الا وضعت فيه سهما

فتراجع المطاردون الجبناء ووقف « أبو سفيان » بعيدا يقول لكنانة :

ـ كف عنا نبلك حتى نكلمك

فكف كنانة

وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال :

ـ انك لم تصب يا ابن الربيع : خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا ، وان ذلك منا ضعف ووهن . ولعمرى ما لنا بحبسها عن ابيها من حاجة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى اذا هدأت الاصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سرا والحقها بأبيها

فكبر على «كنانة» أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن

يذيع فى الناس أن قد ردها قريش ، لولا أن سمع توجعها فالتفت اليها فاذا هى تنزف دما ؛ وقد طرحت جنينهـا على اديم الصحراء !

وعاد بها الى مكة ، حيث بقى « أبو العاص » الى جانبها أياما يرعاها ولا يفارقها لحظة من ليل أو نهار فلما تمالكت بعض قواها ، خرج بها « كنانة » حتى أسلمها الى « زيد ابن حارثة » وما تزال تنزف دما

ولم يتبعها فى هذه المرة طالب ، بل أغمض الذين طاردوها بالأمس أعينهم ، وقد ركبهم الخزى والعار من قول « هند بنت عتبة » تعيرهم وتسخر بهم :

ـ امعركة مع أنثى عزلاء ؟ فهلا كانت هذه الشجاعة فى بدر ؟

أفى السلم أعيارا ، جفاء وغلظـة

وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟

ورجع « كنانة » الى اخيه بعـد أن اطمأن عليهـا وهو يردد بملء صوته :

عجبت لهبـــــار وأوباش قومه

يريدون اخفارى ببنت محمـــد !

ولست أبالى ، ما حييت ، عديدهم

وما استجمعت قبضا يدى بالمهند !

استقبلت « يثرب » بنت الرسول باحتفـال مهيب ، شابت فرحة اللقاء فيه ، سورة الغضب لما أصاب العقيلة

الكريمة اول خروجها من مكة ، وحملت الركبان الى قريش قول شاعر الانصار منذرا متوعدا :

اتانى الذى لا يقـــدر الناس قدره
الزينب فيهم من عقـــوق ومأثم
فأقسمت لا تنفـــك منا كتائب
سراة خميس فى لهـــام مسوم
نزوع قريش الكفر حتى نعلهـــا
بخاطمـــة فوق الأنوف بميسم
ننزلهم أكنـــاف نجـــد ونخله
وان يتهموا بالخيل والرجل نتهم
يد الدهر حتى لا يعـــوج سربنا
ونلحقهـــم آثار عاد وجـــرهم
فأبلغ « ابا سفيان » اما لقيتـــه
لئن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
فأبشر بخزى فى الحياة معجـــل
وسربال قار خالدا فى جهنـــم !
(السيرة ٢/٣١٠)

كذلك تحدثت الركبان بغضب الأب الرسول لابنتـــه ، حتى لقد امر أصحابه أن يحرقوا الرجلين الأثيمين ـ هبارا وزميله ـ بالنار اذا هم ظفروا بهما ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكد يخلو الى نفسه ويتـــدبر ما كان من امره باحراق الرجلين ، حتى راى أنه جاوز فيهما ما يجب لمثله من حدود العقاب ، فلما تنفس الصبح بعث الى أصحابه مسترجعا ما سبق من أمره ، ومستبدلا بالاحراق عقوبة القتل

حدث ابو هريرة قال :

« بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية انا فيها ، فقال لنا : ان ظفرتم بهبار بن الاسود أو الرجل الآخر الذى سبق معه الى زينب ـ سماه ابن اسحاق فقال : هو نافع بن قيس ـ فحرقوهما بالنار

« فلما كان الغد بعث الينا فقال: انى كنت امرتكم بتحريق هذين الرجلين ان اخذتموهما ، ثم رأيت انه لا ينبغى لأحد أن يعذب بالنار الا الله ، فان ظفرتم بهما فاقتلوهما »

ومضت سنوات ست ، حافلة بجليل الاحداث ، و « زينب » فى حمى ابيها بالمدينة تعيش على امل لم يغلبها عليه اليأس قط ، وهو ان يشرح الله صدر « ابى العاص » للاسلام

وليس بمستغرب الا نسمع عنهما خبرا فى هاتيك السنين، والا نلمح للسيدة زينب أثرا فيما كان بين نساء ابيها صلى الله عليه وسلم من مظاهر الغيرة والتنافس ، والا نعرف لأبى العاص بعد موقعة بدر ، مشاركة فى تلك الحرب الطاحنة التى لم تهدأ لحظة ، بين المسلمين فى يثرب والمشركين فى مكة

حتى كانت ليلة من ليالى جمادى الاولى من السنة السادسة للهجرة ، وقد باتت « زينب » مؤرقة تسامر ذكريات الم بها فذادت النوم عن عينيها . وطاب لها ان تحلم فى يقظتها بالغد الذى طال انتظارها اياه ، فالمسلمون يزدادون كل يوم قوة وعددا ؛ وقد دخل فى دين محمد

ألوف وألوف ممن كانوا أشد الناس عداوة له وحربا عليه ، وبدا ان النصر الاكبر آت دون ريب ، فهل يسلم « أبو العاص » ؟

ودنا الفجر وما تزال فى يقظتها الحالمة ، فلم تكد تشعر ببابها وهو يفتح فى تردد وحذر ، ثم يبدو منه فجأة « أبو العاص بن الربيع » وقد شحب وجهه وبان عليه القلق

وارتابت « زينب » فى يقظتها وظنت أن ما ترى ليس الا طيف من تحب ، يسرى اليها فى هداة الليل ، ليذكرها بما لم تنس من ماض لهما سعيد ، ولى وراح

وعجبت للطيف يبدو هكذا شاخصا كما لم يبد لها من قبل على كثرة ما ألم بها ، وغمغمت فى شجو ورقة :

ـ أبو العاص !

فراعها أن يجيب بصوته المألوف :

ـ أجل يا أعز من لى ... أبو العاص ، ألقت به المقادير قريبا من يثرب ، فسعى اليك والمطاردون فى اثره

ولم تصدق « زينب » أذنيها ، بل ظلت ترمقه بنظرة حالمة وهى ما تزال اشبه بمنوامة ، واستمرات ان تبقى هكذا ، سعيدة بلقيا الطيف على غير موعد ، الى أن لمحت نور الفجر الوليد يتسلل من كوى الدار ، وسمعت بلال ابن رباح يؤذن للصلاة بصوته الرخيم ، فتجيبه اصوات المؤمنين الذين هبوا من مضاجعهم عندما سمعوا دعاء السماء :

« الله أكبر »

وميزت خطوات قريبة ساعية الى المسجد فعرفت أنه أبوها يخرج ليصلى بالناس

وقالت كمن تحدث نفسها :

« رباه ، لكأنى فى يقظـــة ، ولكأنى بك يا أبا أمامة الى جانبى ! »

فرد عليها صوت من حسبته طيفا :

ـ اجل يا زينب ، وهذا ضيفك ينتظر أن تحييه بعد ان اجهده السرى ، وارهقته المطاردة ، وأضناه الفراق !

فسرت رعدة فى جسدها ، وقامت اليه مسبلة الجفنين فى فتور حالم ، حتى اذا لم يبق بينهـــا وبينه الا خطوة واحدة ، وقفت فجأة كمن تذكرت شيئا فاتها ، ورنت اليه بنظرة متسائلة دون أن يقوى لسانها على كلام

وهز ابن الربيع راسه أسفا وهو يجيب عن ســـؤالها الصامت :

ـ كلا يا زينب ، لم آت يثرب مسلما ، وانما خرجت تاجرا الى الشام فى أموال لى وأخرى لرجال من قريش ، فلما فرغت من تجارتى واقبلت قافلا ، لقيتنى سرية لأبيك فيها زيد بن حارثة ومعه مائة وسبعون رجلا ، فاصابوا كل ما معى واعجزتهم هاربا ، حتى اذا جن الظلام جئتك متخفيا مستجيرا !

(الاصابة ٨/٩١)

فعادت الى مكانها الاول ، وهى تقول بصوت يقطر اسى ويأسا :

ـ مرحبا بابن الخالة ، مرحبا الف مرحب بابى امامة

ولفهما صمت مشحون بالشـــجن ، وغرق الكون من

حولهما فى سكون خاشع ، وبدا كأن الدنيا قد أمسكت انفاسها لحظة ، ثم تناهى الى سمعها صوت النبى يكبر فى المسجد ، فجمعت زينب نفسها وقامت الى الباب ، ثم صاحت بملء صوتها :

« أيها الناس ، انى أجرت أبا العاص بن الربيع »

وحمل نسيم الفجر صوتها الى من فى المسجد فلما سلم الرسول صلى الله عليه وسلم اقبل على من معه فقال :

« أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ »

أجابوا :

« نعم يا رسول الله »

قال :

« اما والذى نفس محمد بيده ، ماعلمت بشىء من ذلك حتى سمعت ماسمعتم »

وأضاف بعد صمت قصير :

« انه يجير على المسلمين أدناهم ، وقد أجرنا من أجارت »

ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها ، فما كادت تراه حتى هتفت ضارعة :

ـ يارسول الله ، ان أبا العاص ان قرب فابن عم ، وان بعد فأبو ولد ، وانى قد أجرته

فرنا اليهما الاب الكريم فى عطف وتأثر ، ثم قال يحدث ابنته :

ـ اى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن اليك ، فانك لاتحلين له

وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما ، فاتبعاه بصريهما حتى اذا بعد ، التفت كل منهما الى صاحبه ، وقالت زينب لائمة :

ـ هان عليك فراقنا ياأبا العاص

فأجابها وهو يمسك قلبه :

ـ معاذ الحب يازينب ، أما والله ماطاب لى من بعدك عيش

فسألته :

ـ ففيم اذن هذا العذاب ؟ وحتام ؟

أجاب :

ـ حتى يقضى الله فينا أمره

واخفى وجهه بين راحتيه ، كيلا تلمح زينب دمعةترنحت فىمقلتيه

همست فى ضعف :

ـ يرحمنا الله ياأبا العاص

فرفع وجهه اليها وقال متمهلا :

ـ لقد عرضوا على بالامس أن أسلم وآخذ مامعى من اموال فانها أموال المشركين ، فأبيت قائلا : بئس ما أبدا به اسلامى ، أن أخون امانتى

فحدقت زينب فيه لعلها تستبين ماوراء كلامه ، لـكنه تحاشى نظرتها وراح يتشاغل بمناجاة طفلته النائمة فى سلام

▭

وفى الصبح ، بعثالرسول من يصحب « أبا العاص » الى المسجد ، حيث كان صلى الله عليه وسلم يجلس فى جمع من صحابته ، بينهم رجال السرية الذين أصـــابوا مال ابى العاص

وقال لهم الرسول :

ـ ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به

فأجابوا بصوت واحد :

ـ يارسول الله ، بل نرده عليه

وأسرعوا يفعلون ، حتى أن أحدهم ليأتى بالدلو ، وبالاناء الصغير ، وبالسقاء البالى ، الى أن ردوا عليه ماله بأسره ، لم يفقد منه شيئا

وحان موعد رحيله ، فقال الرسول وهو يودعه :

ـ حدثنى فصدقنى ، ووعدنى فوفى له

والتفت أبو العاص الى دار زينب مودعا من بعيد ، ثم مضى وقد اعتزم أمرا !

مضى حتى بلغ مكة ، وفرحت قريش اذ رأته يعود بتجارتها رابحة ، وبأموالها مثمرة لم تمس ، وأقبلت عليه تستعجله الحديث عما كان من أمره مع الاعداء فى يثرب ، لكنه استمهل القوم حتى أدى الى كل ذى مال منهم ماله ، ثم وقف بحيث يسمع وصاح بأعلى صوته :

ـ يامعشر قريش ، هل بقى لاحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟

أجابوا :

ـ لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما !

فأدار فيهم بصره ، ثم قال على مهل وكأنه يزن كل كلمة مما يقول :

ـ فأنا أشهد أن لا اله الا الله وأن محمداً عبده ورسوله .

والله مامنعنى من الاسلام الا تخوف أن تظنوا أنى انما اردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغت منها ، أسلمت»
ـ السيرة ٢/٣١٣

وخلف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة ،وانطلق مستقبلا يثرب

هل هلال المحرم من سنة سبع ، وقد عاد الرسول وصحبه من الحديبية ـ على بعد مرحلة من مكة ـ بعد أن عقدوا الصلح التاريخى الذى بدا كأنه المحاولة الاخيرة لمشركى مكة ، قبل المعركة الحاسمة الفاصلة

وتناقل الناس هنا وهناك ، حديث الرسول يوم حالت قريش بينه وبين ما أراد من دخول مكة ليحج الى البيت العتيق مسالما لايريد قتالا :

« ياويح قريش ! لقد اكلتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم اصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان اظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لازال اجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة ! » واشار الى صفحة عنقه

وصدق رسول الله : ياويح قريش ، لقد اكلتهم الحرب ومايزالون على عنادهم وكفرهم ، وانهم لعلى يقين انهامعركة خاسرة ، لكنهم مع يقينهم ذاك ، يأبون الا أن يلقوا بفلذات اكبادهم وقودا لنار الحرب

وفى قريش أهل وعشيرة ، وفى مكة المسلمين المهاجرين

وطن ورحم وقربى ، وان يثرب لتفتح قلبها قبل ذراعيها لكل من يفد اليها من هؤلاء مسلما ، وتوطىء له فى رحابها منزلا وسكنا

وهاهى ذى تستقبل مع هلال المحرم « أبا العاص بن الربيع » وقد أتى من تلقاء نفسه مسلما ، فتتفاءل بمقدمه الذى اقترن بموعد الذكرى السابعة لهجرة نبى الاسلام

وقد توجه « أبو العاص » فور مقدمه ، الى مسجد الرسول ، مارا فى طريقه ببيت زينب ، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم حفوا به مهنئين ، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر اهمه : أترى الرسول يرد اليه « زينب » بعد الذى كان ؟

وساوره القلق ، ثم ذكر أن الاسلام يجب ماقبله ، فجمع شجاعته وتقدم الى الرسول بحاجته فى استرجاع زينب

واثنى الرسول عليه خيرا ، ثم قام عليه الصلاةوالسلام ، وسار الى بيته ومعه ابن الربيع

ودعا اليه ابنته ، فردها على أبى العاص ، واجتمع الشمل الممزق ، وتلاقى الزوجان الحبيبان بعد فراق طال مداه حتى استنفد الصبر وغلب التجمل وافنى الاحتمال

ومضى عام واحد ..

عام واحد فحسب ، ثم كان الفراق الذى لالقاء بعده فى هذه الدنيا

ماتت « زينب » فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة ، متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على اديم الصحراء وهى خارجة من مكة

وربع « أبو العاص » للمصاب الفادح ، فأكب على الحبيبة يناجيها ويتشبث بها حتى أبكى من حوله ، ولم يجرؤ احد منهم على ابعاده عن فراش الراقدة ، حتى جاء ابوها محزونا فاستودعها الله ، ثم قال للنساء :

ـ اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا ، واجعلن فى الآخرة كافورا

هنالك غادر « أبوالعاص » مخدع الغالية بخطوات مترنحة ، ووقف بالباب ملتاعا شارد النظرات ، الى أن جهزوها للرحلة التى لايئوب منها مسافر

وصلى عليها أبوها الرسول فى مسجده ، ثم شيعها الى مرقدها حيث اودعوها ثرى يثرب وهالوا عليها الرمال

ورجع « أبوالعاص » الى داره التى كانت بالامس جنة الحب ، فأمست بعد رحيل « زينب » منزل الذكريات والاشجان

وكاد الحزن يهلكه ، لولا أن وجد فى ابنته « امامة » صورة حية من الراحلة ، تؤنس وحشته ، وتأسو جراحه ، وتمحو بعض ما ران على البيت من وجوم واكتئاب

وكذلك وجد الرسول فى « امامة » مايخفف حزنه على « زينب » ، فكان يأنس بها ويهش لها ، وقد يحملها على عاتقه ويصلى بها ، فاذا سجد وضعها حتى يقضى صلاته ثم يعود فيحملها

وحدثت السيدة عائشة أن الرسول صلى الله عليه وسلم أهديت اليه هدية فيها قلادة من جزع ، فقال : لادفعنها الى أحب أهلى الى . فقالت النساء : ذهبت بها ابنة ابى قحافة ! لكن رسول الله دعا امامة بنت زينب ، فأعلقها فى عنقها

ولم يكن جزع فاطمة على موت زينب بالذى يوصف ، فلقد راحت تبكى فيها أمها وشقيقتها وصديقتها وصاحبتها ، وتذكر أيامهما السعيدة فى مكة اذ البال خلى وشمل الاسرة ملتئم ، ثم كان لهـا بعض عزاء فى تسمية وليدتها باسم « زينب » احياء لذكرى الفقيدة الغالية ، وترديدا لاسمها الحبيب الذى لايمل

ولم يتزوج أبو العاص بن الربيع ـ فيما قرانا ـ حتى لحق بزينب ، أيام ابى بكر ، فى ذى الحجة من السنة الثانية عشرة للهجرة

واوصى بابنته أمامة الى « الزبير » ابن خاله العوام بن خويلد بن اسد . وقد زوجها الزبير من على بن أبى طالب بعد وفاة خالتها الزهراء ، وظلت معه حتى قتل ، فكان مشهدها وهى تطيف به اذ هو مسجى على فراشه ، يمزق القلوب ويفتت الاكباد

قالت « أم الهيثم النخعية » :

اشـــاب ذؤابتى واذل ركبى
« أمامة » حين فارقت القرينا
تطيف به لحاجتهـــا اليـــه
فلمـا استيأست رفعت رهينا

وكان الامام الشهيد قد قال لأمامة حين حضرته الوفاة : « انى لآمن أن يخطبك هذا الطاغية ـ يعنى معاوية ـ بعد موتى ، فان كان لك فى الرجال حاجة فقد رضيت لك المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب عشيرا »

فلما انقضت عدتها ، كتب معاوية الى مروان بن الحكم يأمره ان يخطبها عليه ، وبذل لها مائة الف دينار . فلما ذكرت ذلك للمغيرة المطلبى الهاشمى ، قال مغضبا :

ـ أتتزوجين ابن آكلة الاكباد ؟ فلو جعلت امرك الى ؟

أجابت وقد ذكرت وصية زوجها الامام الراحل :

ـ نعم

فقال المغيرة :

ـ قد تزوجتك

واقامت معه حتى ماتت ، عن غير خلف ، وان قيل فى رواية انها ولدت لعلى ابنه يحيى

وبموتها انقطع عقب « زينب الكبرى » وبقيت قصتها المثيرة ملء سمع الزمان